القرطبي

حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير

تأليف

الدكتور مفتاح السنوسي بالعمم

أستاذ الدراسات الإسلامية

جامعة قاريونس - بنغازي

منشورات

جامعة قاريونس

بنغازي

رقم الايداع 97/3131

دار الكتب الوطنية – بنغازي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الاولى 1998 م .

لايجوز طبع أو استنساخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
الا بعد الحصول على الموافقة الكتابية من الناشر

منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا نعمته، ورضى لنا الإسلام ديناً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، المبعوث بالرحمة والهدى للناس أجمعين.

وبعد: فإنّ لكل أمة من أمم العالم فكرها الذي تعتز به، وتحافظ عليه، وتصونه من أي تحريف أو تزييف.

ونحن أمة مسلمة لها فكرها الذي تحترمه وتحرص على أن يظل مصدر حياتها الفكرية وأساس نهضتها في شتى مجالات الحياة.

هذا الفكر الذي يحاول أعداء الإسلام تشويهه وطمس حقائقه ـ يجب علينا أن نعمل على نشره بين المسلمين وتمكينهم من الاطلاع عليه ليأخذوا من ماضيهم الإسلامي المشرق العبرة والعظة وليشعروا بالعزة لانتمائهم إليه، ويدركوا أنّ أساس تقييمهم للناس وأفكارهم ومناهج حياتهم المعاصرة هو الإسلام، والإسلام وحده، ويبنوا حياتهم المعاصرة على أسس راسخة من العلم والإيمان والتقوى والفكر المستنير حتى يحققوا ما يسعون إليه من الأمن والسعادة والحياة الكريمة.

إنّ هذا الفكر بكل مضامينه ودلالاته ـ هو الذي يربط أول هذه الأمة بآخرها، وكانت هذه الأمة أشد حرصاً عليه، لأنها ترى فيه بقاءها وحياتها.

لهذه الاعتبارات جميعها أشعر بثقل المسئولية عن هذا الفكر والمحافظة عليه وإحيائه.

وأول خطوة نخطوها في هذا المجال هي محاولة التأليف في موضوع له أبعاده وآثاره في حياتنا الفكرية المعاصرة، ويتناول هذا الموضوع:

حياة القرطبي وآثاره العلمية وطريقته في تفسير كتابه العزيز.

والذي دفعني للكتابة والتأليف في هذا الموضوع أسباب من أهمها:

1- للإمام القرطبي تفسير مشهور بين الباحثين وطلاب الثقافة الإسلامية، وقد اشتمل هذا التفسير على معارف متعددة، وبحوث علمية مفيدة. الأمر الذي دفعني إلى التفكير في دراسة هذا التفسير، وبيان منهج مؤلفه فيه.. خدمة لطلاب العلم ومساهمة في إحياء التراث الإسلامي.

2 - كان الإمام القرطبي من الأئمة والعلماء الأندلسيين الذين فرّوا من بلادهم إبان وقوع الأندلس تحت سيطرة النصارى، وكان البعض منهم قد اتجه شرقاً كالإمام القرطبي الذي رحل إلى أرض الكنانة ماراً في هذه الرحلة العلمية المباركة بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا.. معلماً ومتعلماً.

ولما كان الإمام القرطبي كذلك - رأيت أن أذكر نشاطه العلمي ومشاركته في نشر العلوم الشرعية والثقافية الإسلامية، ومناقشاته لعلماء عصره الذين التقى بهم في هذه الرحلة العلمية.

3- لما كان الإمام القرطبي قد نهج في تفسيره منهجاً يربط فيه بين الواقع والحكم الشرعي - رأيت أن أتناول تفسيره بالبحث والدراسة لأتعرف على اتجاهاته النقدية لمعاصريه من القراء والحكام وعامة الناس.

هذه هي أهم الأسباب التي دفعتني لتناول هذا الموضوع والكتابة فيه.. أدعو الله تعالى أن يوفقني لعرض قضاياه وبيان جوانبه العلمية المتنوعة.

المؤلف

بنغازي في: 1996/11/15

تمهيد

الحياة السياسية والعلمية في الأندلس ومصر في عصر القرطبي

إن مما تقتضيه مناهج البحث العلمي - في مجالات المعرفة الإنسانية المتنوعة أن يلقى الباحث أضواء كاشفة تسبق موضوع دراسته، ليربط أجزاءه بعضها ببعض حتى يصل في نهايته إلى تكامله وتوفيته حقه من البحث والربط والتفصيل. فيمهد لموضوعه بمقدمة - حسب نوعية الدراسة والموضوع الذي يتطرق إليه - وذلك مدخل طبيعي لصلب البحث. وبذلك يحقق الموضوع - المطروق للدراسة - الغايات التي ينشدها الباحث.

ذلك المنهج هو الذي سنتبعه - إن شاء الله تعالى - في بحثنا: (القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير) فنقدم بين يديه بمقدمة تتناول الحياة السياسية والثقافية في غرب العالم الإسلامي (المغرب والأندلس) وفي شرقه (مصر والشام) ثم نعرج للحديث عن الترجمة التفصيلية لحياة القرطبي ومؤلفاته - المطبوعة منها والمخطوطة وشيوخه الذين تلقى عنهم علومه وثقافته وتأثر بهم، وآثاره المختلفة في التفسير وعلومه والقراءات والحديث والعقائد (التوحيد) والفقه واللغة ونحوها والتصوف. ثم يعقب ذلك إعطاء فكرة موجزة عن التفسير القرآني: نشأته ومراحل تطوره ونمائه وجهود علماء الإسلام وآرائهم والشروط - أو العلوم - التي وضعوها، والتي يجب أن تتوافر في كل من يتصدى لتفسير كلام الله عز وجل، ومدى انطباقها على شخصية القرطبي التفسيرية.

ولا جدال في ان أجمع آثاره وأبرزها هو تفسيره الذي غرب فيه وشرق

وسماه: (الجامع لأحكام القرآن) وسنخصص له أبواباً مستقلة لبيان منهج مؤلفه ومميزاته والمرتكزات الفكرية التي قام على أسسها. وسنذكر ـ عند حديثنا عن الحياة السياسية والثقافية في شرق بلاد الإسلام وغربها ـ انطباع القرطبي عن هذه الحياة، وموقفه منها، ورأيه فيما اعوج من أمورها، وتأزم من شئونها.. والله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير.

عاصر القرطبي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ فترات زمنية من تاريخ الدول الاسلامية التي حكمت ديار الإسلام ـ غرباً وشرقاً ـ وكانت ظروف حياته هذه قاسية ومؤلمة وذلك لما أصاب المسلمين من التمزق والضياع واستيلاء النصارى على ديارهم، والاستعانة بهم على قتال بعضهم بعضاً وغير ذلك من المآسي التي كانت تحز في نفسه، وتؤلم فؤاده، وتحرق قلبه. والتي أشار إلى بعضها في تفسيره الجامع وفي كتابه التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة.

ففي الغرب الإسلامي حيث ولد القرطبي ونشأ في قرطبة عاصر بعض الظروف السياسية والثقافية التي أحاطت بالدول الإسلامية التي توالى حكمها على المغرب والاندلس، وكذلك الحال في الشرق الإسلامي حيث هاجر اليه وطاب به المقام في مصر حيث توفاه الله تعالى في مدينة منية ابن خصيب في 9 شوال سنة 671 هجرية.

ونبدأ هذا المدخل التاريخي بالحديث عن الحياة السياسية بالمغرب والأندلس ثم الحياة الثقافية والاجتماعية، ثم نتطرق للحديث عن الهزات العنيفة والأعاصير الجارفة التي اجتاحت المسلمين في هذه البلاد، حتى قتل وأسر الآلاف منهم وفر الباقون. أو بعبارة أوضح نتحدث عن مأساة الأندلس الأليمة وما أصاب مسلميها من الاضطهاد والقتل والنفي والتشريد. وأخيراً نذكر الرحالة الأندلسيين الى الشرق الإسلامي، والأسباب التي دفعتهم إلى ذلك، والأهداف التي كانوا يرمون اليها من وراء هذه الرحلات المتكررة، والتي كانت الاسكندرية نقطة تجمعها ومركز التقائها.

وتبدو صورة الحياة السياسية واضحة ـ في هذه الفترة ـ في المغرب والأندلس

بتسلم الموحدين لزمام القيادة والحكم فيهما، الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين، بعد معركة انتهت بانتصار الموحدين في شهر شعبان سنة 516 هـ (أغسطس 1123 م)[1] . كان من أثرها أن وجه المهدي بن تومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى امتثال أمره وطاعته، ويحذرهم بطشه ونقمته إذا لم يستجيبوا. وقد أورد الأستاذ محمد عبدالله عنان هذه الرسالة في كتابه: (عصر المرابطين والموحدين ـ القسم الثاني) نقلاً عن صاحب الحلل الموشية. وهذا نصها: «إلى القوم الذين استذلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية والشرذمة الطاغية، لمتونة، أما بعد / قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فان أديتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خالياً، والجديد بالياً، وكتابنا هذا اليكم اعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم، سلام السنة، لا سلام الرضى»[2] .

ويتضح لنا من أسلوب رسالة المهدي هذه، أنه كان صاحب دعوة قد صبغت بالصبغة الدينية، وأنه عازم على نشرها وتبليغها للناس مهما لاقى في سبيلها من العنت والتضحيات. وما دامت تلك الدعوة ترتبط بالدين وتتخذه أساساً لها، فلا بد من القاء الأضواء الكاشفة لها، ومعرفة حقيقتها، وكيف أقام المهدي وأنصاره الدولة الموحدية على أسسها؟

ففي حوالي سنة 1107 م رحل إلى بغداد محمد بن تومرت، وهو من قبيلة بربرية تدعى (مصمودة). وكان قد قضى فترة يسيرة في قرطبة وشاهد احراق مصنفات الإمام أبي حامد الغزالي ـ ابان الحكم المرابطى ـ وكانت كتب ابن حزم قد

(1) محمد عنان / عصر المرابطين والموحدين ص 178 .

(2) ص 180 .

أثارت في نفسيته كثيراً من التفكير والتأمل. وكان هدفه من هذه الرحلة المشرقية اتمام تحصيله الفقهي من معينه الفياض في بغداد. وهناك وقف على التعاليم الأشعرية[1] . وسرعان ما اعتنقها بالغيرة التي امتاز بها بنو جنسه البربر[2] .

وينقل الأستاذ محمد عنان عن ابن خلدون قوله: «أنه (أي ابن تومرت) تأثر بالتعاليم الأشعرية، وأخذ عنهم، واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها، وفي تأويل المتشابه من القرآن والحديث[3] .

كانت الاسكندرية ـ كما قلنا ـ مركز تجمع الرحالة المسلمين، وقد اتجه اليها ابن تومرت بعد أن أتم تحصيله العلمي في بغداد للإقامة فيها. وبدأ ينشر فيها نظريته الجديدة، القائمة على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل جر عليه نفيه منها «وركب ابن تومرت البحر من الاسكندرية في أواخر سنة 511 هجرية (1117م)، ويقال انه أخرج منفياً من الاسكندرية لما ترتب من شغب على نشاطه في مطاردة المنكر»[4] . وعلى الرغم من ذلك، فان ابن تومرت لم يفتأ في نشر دعوته حتى ولو أجبر على الرحيل والرجوع إلى المغرب. فنجده ـ وهو على ظهر السفينة التي أقلته ـ يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وألزمهم (بإقامة الصلاة وقراءة القرآن، واشتد في ذلك حتى قيل ان ركاب السفينة ألقوه إلى البحر، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء، فلما رأوا ذلك أنزلوا اليه من رفعه من الماء، وقد عظم في نفوسهم، وبالغوا في اكرامه)[4] . وهذا يدل على إيمانه العميق بفكرته وثباته عليها، واصراره على نشرها وبيانها للناس.

ولما رجع ابن تومرت إلى المغرب أعلن دعوته الجديدة التي تتمثل في الحرص على التوحيد والتمسك بالسنة. وبدأ يجول ويطوف في أنحاء مراكش وغيرها من

(1) نسبة لأبي الحسن علي الأشعري المتوفي سنة 935 م.
(2) بروكلمان / تـأريخ الشعوب الإسلامية ص 191 .
(3) عصر المرابطين والموحدين ض 163 .
(4) عنان / عصر المرابطين 164 .

المدن المغربية داعياً الناس لدعوته تلك. وعندما باءت دعوته ـ هناك ـ بالفشل وعدم الاستجابة، قفل راجعاً إلى قبيلته في الأطلس (جبال درن) ونجح في نشر مبادئه بين أفرادها. وبنى مسجداً في (تينملل) ، وبذلك وضع الأساس لعاصمة دولة الموحدين. وكان حول صاحب هذه الدعوة مجلس يتألف من اتباعه العشرة السابقين إلى قبول دعوته، وهم المسمون «بالجماعة» ليضيف إليه بعد مجلساً آخر ينتظم خمسين مندوباً عن مختلف القبائل البربرية (ووضع لهم في التوحيد كتاباً باللغة البربرية سماه: (المرشدة) يحتوي على معرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر، والإيمان بما يجب لله تعالى، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتضمن الأعشار والأحزاب والسور، وقال لهم: ان من لم يحفظ هذا التوحيد ليس بموحد، وإنما هو كافر لا تجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته[1] . قال صاحب روض القرطاس «فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز لأنه وجدهم قوما جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا)[2] . «ولبث المهدي ابن تومرت يبث دعوته، ويعمل على توطيدها في نفوس أنصاره، بفصاحته وذلاقته، ورقيق وعظه، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ويدعون إلى امامته ومهديته، والناس يفدون عليه من كل صوب جموعاً غفيرة، يبايعونه بالإمامة، ويتبركون برؤيته، حتى استفحل أمره، وعلا صيته، وكثر جمعه، وأضحى يمثل بما تنطوي عليه حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة، خطراً داهماً على سلطان المرابطين»[3] .

وذكر الأستاذ / عنان صيغة التوحيد التي وضعها المهدي ابن تومرت لأتباعه وهي توحيد الله سبحانه وتعالى. وقد نقلها من كتابه «أعز ما يطلب» وهي صيغة

(1) بروكلمان: الامبراطورية الإسلامية 192 .
(2) عنان / عصر المرابطين ص 175 .
(3) نفسه ص 176 .